نزعة التعصب بين العرب والموالي في الشعر الأموي

د. السيد أحمد عمارة

تتردد كلمة الموالي كثيراً في العصرين الأموي والعباسي، فما مدلولها؟ وما المراد منها في هذا الحديث؟

الموالي : جمع مولى، وهو من ألفاظ الأضداد، فالمولى المنعم المعتق، والمولى المنعم عليه المعتق(١). كما يطلق على ابن العم وعلى الحليف، وعلى الجار وعلى الصهر، وعلى المالك وعلى الرب، وإلى هذه المعاني التي ترجع في جملتها إلى النصرة والمحبة تشير كتب اللغة(٢). والمقصود بهم هنا كل من أسلم من غير العرب، سواء استرقّ أو لم يسترقّ، لأنهم إما أن يكون أصلهم أسرى حرب، استرقوا ثم اعتقوا فصاروا موالي، وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويتحالفون معهم، لكي يعتزوا بقوتهم، فيصبحوا موالي بالحلف والموالاة، وبذلك سمي العجم موالي، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب، وكان للعرب استرقاقهم، فإذا تركوهم أحرارا فكأنهم اعتقوهم، والموالي هم المعتقون(٣).

وفي العصر الأموي اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، وتم في عهدها أغلب الفتوحات العربية، حتى أصبحت بلاد فارس أشبه بجزيرة عربية وسط المحيط العربي الكبير الذي امتد بين الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن فرنسا شمالا إلى أواسط إفريقية جنوبا، وبذلك أظلت الدولة شعوبا شتى من أجناس متعددة، وكان غالبية الموالي من الفرس والروم، ثم المصريين والنوبيين وغيرهم.

هؤلاء جميعاً أظلهم الإسلام وعاشوا تحت لوائه، ودخل منهم عدد كبير فيه وكان من المفروض أن يسير خلفاء بني أمية على نهج أسلافهم الخلفاء الراشدين الذين هدهدوا من العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد أسلافهم الجاهليين، وخففوا من غلوائها، امتثالاً لقول الحق سبحانه: «إنما المؤمنون إخوة»[٤] وقول الرسول الكريم في حجة الوداع: «... أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٥] وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف الذي يجعل التقوى معياراً للمفاضلة والموازنة بين الناس، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوي بين العربي ومولاه في العطاء، وحين جاءه بنو عدي - وهم عشيرته - طالبين منه أن يفضلهم على مواليهم ويزيد في عطائهم غضب وقال لهم: «بخ بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري وأن أهب حسناتي لكم، والله لئن جاءت الأعاجم بعمل، وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه»[٦].

فعمر الخليفة العادل يسوي بين العرب ومواليهم، لأنهم بدخولهم في الإسلام أصبحوا إخوة ولم يكن هناك ما يدعو للتمايز أو التفاضل، وإن كان سؤالهم هذا يدل على ميلهم إلى التعصب للعرب، ونفرتهم من المساواة بينهم وبين مواليهم، المهم أن عمر زجرهم وهو خليفة المسلمين الذي يصدر الناس عن أمره وينزلون على حكمه، ومن قبل عمر حقق الرسول ﷺ المساواة العملية بين الناس حين وضع من أسلم من الموالي من أمثال بلال الحبشي وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب مع المسلمين من العرب ذوي المكانة العالية والمنزلة الرفيعة، فقد احتل سلمان الفارسي مكانة سامية من نفس رسول الله ﷺ وأصحابه، إلى الحد الذي جعله الرسول من خاصته وآل بيته، فكان يحدّث عنه قائلاً «سلمان منا آل البيت» وقد ولي قسمة الغنائم بين المسلمين في واقعة جلولاء، وكان يقول مفتخراً بإسلامه «أنا ابن الإسلام»[٧].

وكان عمر يقول حين يتذكر صنيع أبي بكر وعتقه لبلال: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا[٨]، فنزعة تفضيل العرب على غيرهم كادت تمّحي من النفوس طوال عهد الرسول والراشدين من بعده، وكثيراً ما كان يتاح لهذه النزعة أو للعصبية القبلية فرصة الظهور، فلا تكاد تظهر إلا نادراً، إذ إن سياسة الخلفاء الراشدين الرامية إلى التسوية بين الناس جميعاً والقضاء على نظام الطبقات كانت قد خففت من حدتها، حتى جاء عصر الأمويين، فوجدنا العصبية القبلية تطل بشبحها البغيض، فكان العربي يفخر بقبيلته في الإسلام كما كان يفخر بها في الجاهلية، وربما كانت النقائض التي اشتهر بها هذا العصر

تعبيراً عن روح هذه العصبية وانعكاساتها، فقدحكى المبرد أن رجلاً من الأزدكان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه، فقيل له ألا تدعو لأمك؟ فقال إنها تميمية [٩]. وكأن عصبية هذا الأزدي قد أعمته عن الصواب وأوردته موارد العقوق والعصيان في حين أنه كان يؤدي فريضة الحج وهو الوقت الذي تصفو فيه نفس الإنسان فيتجرد من حوله وطوله ويقبل على ربه بكليَّته عسى أن يغفر ذلك ويقبل توبته ثم أخذت هذه العصبية تنمو، حتى وجدنا تعصباً للجنس العربي كله ضد الشعوب الأجنبية على حد قول أحدهم: [١٠].

إنَّا من النفر الذين جيادهم طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالقنا واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

وأصبحوا ينظرون إلى الأعاجم ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ـ نظرة هي مزيج من البغض والاحتقار ولعل مرد ذلك إلى ضعف سريان روح الإسلام في نفوسهم لبعد عهدهم بصاحب الرسالة من جهة، وللنعرة العربية المتأصلة في نفوسهم منذ القدم بحكم الحياة البدوية التي غرست فيهم حب الأنفة والكبرياء من ناحية أخرى، وربماكانوا ينظرون إلى أصحاب هذه البلاد المفتوحة على أنهم فيء أفاء الله به عليهم فأعتقوا رقابهم، وكان ذلك سبباً في إشعال نار العداوة في نفوس الأعاجم كتيار عكسي لما كان من بني أمية.

يقول الأستاذ أحمد الشايب معلقاً على هذا الاتجاه: «ولما استطال العرب على الموالي واحتقروهم، واعتبروهم دونهم دما، وجنسا، ولغة، وأدبا، وشجاعة، وخلقا، تولد في نفوس الموالي تيار عكسي نقموا به على العرب لخروجهم على الإسلام الذي يسوى بين أهله ولا يعرف جنسا ولا طبقة... وهكذا نشأت أصول الشعوبية التي أثارت جدلاً شديداً في الدولة العباسية [١١].

ويلتمس بعض الباحثين العذر لمسلك بني أمية نحو الموالي، ويرى أنه موقف طبيعي يلائم سنة التطور، ويتفق وطبيعة الأشياء، فمسلك الأمويين من الموالي لم يكن أمراً غريباً .. بل كان ضرورة تحتمها الظروف والملابسات التي كانت قائمة آنذاك، فالأمويون من الجنس العربي الفاتح، وإليهم آل الحكم وتدبير الأمر، بالإضافة إلى أن العربي هو الجنس الفاتح المنتصر، والموالي مسترقّون لهم، وأنهم أجناس مغلوبة على أمرها فمن السياسة إذن كبح جماح هذه الأجناس، وتذكيرهم بالسيطرة العربية حتى يتطامنوا ويخضعوا لها، ولا تحدثهم نفوسهم بالخروج عليها [١٢].

وإذاكان هذا تعليلاً لموقفهم من الموالي إلا أنهم بهذه السياسة قد نقضوا مبدأ هاماً من المبادىء

التي أرساها الإسلام وهي المساواة التامة بين معتنقيه، فلم تحاول الدولة أن تسوي بين العرب وبين أجناس الشعوب التي دخلت تحت سيطرتها، أو تتألفها، وتحكم فيهم بحكم الإسلام، بل على العكس من ذلك تميزت للجنس العربي وقلدته كل مناصب الدولة، وحرمت الأعاجم من أن يلوا أمراً، باستثناء عدد قليل جداً من الوظائف. بل إنها ألزمتهم مواضع بعينها لا يتجاوزونها حتى لا يتغلغلوا في المجتمع العربي، وألزمت الداخلين منهم في الإسلام بالولاء لقبيلة عربية، وربما حرَّمت عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام، كما فعل الحجاج حين أعادهم إلى قراهم بالقوة[١٣] ولذلك يقول عنهم: إنما الموالي علوج، وإنما أتى بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، وقد أمر بترحيلهم من الأمصار وأقر العرب بها، وإمعاناً في إذلالهم، وتعبيراً عن هوانهم أمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته، حتى لا يفر منها إلى غيرها، ويسهل عليه الاستدلال عليها إن ضل عنها، وكان الذي تولى ذلك رجل من بني سعد بن عجل، فقال شاعرهم مشيراً إلى ذلك[١٤]:

وأنت من نقش العجلي راحته ... ففر شيخك حتى عاذ بالحكم

كما عبر عن ذلك أحد الرجاز قائلاً[١٥]:

جارية لم تدر ما سوق الإبل ... أخرجها الحجاج من كن وظل
لو كان بدر حاضراً وابن حمل ... ما نقشت كفّاك في جلد جلل

وازداد الأمر سوءاً حين رفض الأمويون إسقاط الجزية عمن أسلم من الموالي حتى لا يتأثر بيت المال، وإن كان عمر بن عبد العزيز قد رفض هذا الوضع الجائر طوال حياته لكن الأمر ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته لأن ذلك كان لا يمثل سياسة الدولة، فلا عجب أن نجد العناصر الأعجمية تحن إلى مجدها القديم، فتيقظت في نفوسهم النزعات القومية التي اصطدمت بالعصبية العربية، فكان بينهما صراع عنيف، بدأ ظهوره في هذا العصر، وبلغ غايته في العصر العباسي، وقد مثل الشعر هذا الصراع، والواقع أن الصراع بين العرب والفرس، أو بين العرب والشعوبية بمفهومها العام الذي يتضمن العداء للعرب والإحساس بالتميز عليهم بدأ منذ العصر الجاهلي حين فكر كسرى في غزوهم، فأخذوا ينوهون بفضلهم، وبما لهم من سجايا تفوقوا بها على سائر الأمم رداً على انتقاص كسرى لهم واستهانته بأمرهم، فهذا عمرو القضاعي يفتخر بانتصار قبيلته على الفرس حين أغارت عليهم، منوهاً بفروسيتهم والروح الحربية التي كانت تسيطر على هذا الجمع الحاشد من الجنود والفرسان[١٦]:

لقيناهم بجمع من علاف ... وبالخيل الصلادمة الذكور

فلاقت فارس منّا نكالا وقتّلنا هرابذ شهر زور
دلفنا للأعاجم من بعيد بجمع كالجزيرة في السعير

والأعشى يتخذ من انتصار بني شيبان على الفرس في يوم «ذي قار» مادة خصبة للفخر بهم، فأخذ يصور قوتهم، وما لقيت فارس على أيديهم من ذل وانكسار(١٧):

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلّت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر مقدمة الهامرز حتى تولت

إلى أن يقول:

أذاقوهمُ كأساً من الموت مرة وقد بذخت فرسانهم وأدلّت

وقد فاضت ألسنة كثير من الشعراء بالنصر الذي تحقق في هذا اليوم كرد فعل لما كان يحس به العرب من عداء الفرس لهم وغطرستهم، والرغبة في إخضاعهم والتطاول عليهم، وفي الإسلام أحس الفرس الذين أزال العرب ملكهم الكسروي وحرروا أرض العجم من جورهم ونشروا الإسلام في ربوعها أحسوا بعداء شديد للعرب، وأخذوا يتحينون الفرصة للانتقام منهم ومحاولة التخلص من سلطتهم وإعادة الدولة الفارسية، وتمثل ذلك في مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب على أيديهم حيث تم في عهده فتح بلاد الفرس والروم، ولذلك عمدوا إلى قتله والتخلص منه، فعمد أبو لؤلؤة «فيروز» المجوسي غلام المغيرة بن شعبة إلى المسجد متسللاً بين الصفوف، وطعنه عدة طعنات أودت بحياته، كما كانت نهاية الإمام علي رضي الله عنه على أيديهم حين تمكن الشعوبي الفارسي عبد الرحمن بن ملجم من قتله، وهو يؤم المسلمين في مسجد الكوفة، وظل الموالي طوال هذا العصر يخفون ما في صدورهم من عصبية على العرب، هذه العصبية التي كانت تظهر أحياناً كلما لاحت لها فرصة الظهور على يد الذين تعلموا العربية منهم وفاض الشعر على ألسنتهم، وإن كان الشعر المعبر عن حقيقة موقفهم، والمشحون بالثورة والتمرد على العرب لم يصلنا منه إلا القليل ربما يكون ضاع فيما ضاع من التراث، لأن الدولة لم تجز إذاعته، أو أن الرواة تحفظوا في نقله لأنه يجرح مشاعر المسلمين ويسيء إليهم، كما يتضمن السخط على الخلفاء والحاكمين وعلى النظام الاجتماعي الذي بدت فيه مظاهر الطبقية المقيتة، وإذا كان شعر الموالي في هذه الفترة قد فقد، فإن ما بقي منه هو ما اتصل بالدولة الأموية مديحاً للخلفاء وتقريظاً لسياستهم أو فضحاً لأعدائهم، وقد فطنت الدكتورة «بنت الشاطىء» للوقوف على هذه الحقيقة حين ذكرت: «ضاع شعر الموالي أو صودر، ولم يضع شعر «نصيب» لأنه

كان من شعراء البلاط الذين استأثروا بالشهرة، واشتهر معهم من شعراء الحزب الزبيري «عبيدالله بن قيس الرقيات» لأنه تنكر لماضيه وتعلق بركاب عبد الملك بن مروان ... فلو لم تتصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر لكانوا مظنة أن يوضعوا في منطقة الظل»[18] وقد عبر الشعر العربي عن نظرة العرب إلى الموالي بصورة صريحة وواضحة حين نزل جرير بن عطية الخطفي بقوم من بني العنبر ورفضوا أن يضيّفوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف غاضباً مذكراً إياهم أن بيع القرى لا يمكن أن يصدر من عربي، فالبيع لا يكون إلا للموالي، وفي هذا احتقار لمشاعرهم وتصريح بأنهم يباعون بيع السوام[19]:

يا مالك بن طريف إن بيعكم　　رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم　　بيعوا الموالي واستحيوا من العرب

ويعلق المبرد على ذلك بقوله: «إن جلة الموالي أنفت من هذا البيت، لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً»، واعتمد بعض الشعراء في هجائه لفريق من العرب على أنهم ليسوا بعرب، بل هم كالفرس أو الروم أو الأنباط، ولذلك فقد استحقوا الذم واستوجبوا الهجاء.

فالفرزدق يسمى طيناً الأنباط ويقول فيهم:

وما كنت أخشى طيئاً أن تسبني　　وهم نبط لم تعتصب بالعمائم
نبيط القرى لم تختمر أمهاتهم　　ولا وجدت مَسَّ الحديد الكوالم
متى يهبط الطائي أرضاً ولم يكن　　به وشم موشوم يكن غنم غانم

فهو لا يعبأ بهم ولا يبالي بهجائهم لأنهم نبط أو كالنبط، فلا يضره قدحهم ولا ينفعه مدحهم وكأنه يعالن ويجاهر في صراحة أنه لا يخشى الهجاء ولا يطرب للمديح إلا إذا كان صادراً من عربي صلبية، ويبدو أن الفرزدق اتخذ من جوار طيء للأنباط منطلقاً يلج منه إلى هجائهم يقول في هجاء أيوب بن عيسى الضبي:

فلو كنت قيسياً إذا ما حبستني　　ولكن زنجياً غليظاً مشافره

وتظهر نظرة **الأمويين غير المتكافئة** للموالي في إبعادهم عن مناصب الدولة بينا استأثروا هم بكل وظائفها، لأن العرب ـ في نظرهم ـ لا يخضعون لغير العرب، فإذا حدث وتولى أحد الموالي منصباً **لكفاءته** واقتداره على القيام بتبعاته عدَّ ذلك أمراً غريباً، وخروجاً على النهج السوي بل كارثة تؤذن

بقيام الساعة، وقد صور ذلك أحد الشعراء حين ولي «نوح بن دراج» ـ وكان من الموالي ـ قضاء الكوفة، مع استحقاقه لذلك[٢٠]:

إن القيامة فيما أحسب اقتربت ... إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيًّا له الحجاج ما بقيت ... صحيحة كفه من نقش حجاج

فهذا الشاعر يرى أن الأمر وسد لغير أهله، وقلبت الموازين وهو ما يؤذن بقرب الساعة ورحم الله الحجاج الذي كان يسم أيدي النبط بالمشراط، ويعاملهم بما يستحقون، ولا شك أنه كان ينفذ سياسة الأمويين الرامية إلى الاستعلاء على كل من ليس بعربي، على أن هذا النقش كان علامة إذلال وامتهان حتى استغله الشعراء في هجائهم.

وتتأكد هذه النزعة لدى العرب حين نراهم يحجمون عن مصاهرة الموالي، ويترفعون عن تزويجهم ويرون أن زواج الموالي من العرب فيه من النقيصة والعار، فوق ما يتحمله العربي الأصيل الذي يتخذ من صراحة النسب مجالاً للمباهاة والمفاخرة، فحين تزوج أحد الموالي بفتاة عربية من بني سليم، وشي محمد بن بشير الخارجي إلى والي المدينة، واستعداه عليه، ففرق بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه.

يقول محمد بن بشير يبارك عمل الوالي ويمتدح قضاءه[٢١]:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ... ولم ترث الحكومة من بعيد
إذا غمز القنا وُجدت لعمري ... قناتك حين تغمز خير عود

إلى أن يقول:

وفي المائتين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيد
فأي الحق أنصف للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيد

وليست هذه حالة فردية، فإن من يقرأ قصيدة أبي بجير في تأنيب عبد القيس وسخريته منهم لتزويجهم الموالي تتأكد له هذه النزعة، ويرى أن العرب كانوا ينكرون هذا الاقتران ويحاربونه، ويرون فيه مذلة وهواناً، وكأنه ليس بزواج، وإنما هو اعتداء على الحرمات مهما علت منزلة المولى حتى لو كان من سراة الأعاجم، فأين الحفاظ على الأعراض ورعاية حق النسب؟ إنهم بفعلتهم هذه استوجبوا الخزي، وانسلوا من صفوف العرب، فلا يحق لهم فخر بعد ذلك[٢٢]:

أمن قـلـة إلى أن قـبـلـتم دعـاوة زراع وآخـر تـاجـر
وأصـهب رومي وأسود فـاحـم وأبيض جـعـد من سراة الأحـامـر
متى قـال إني منكـم فصدق وإن كـان زنجياً غـلـيـظ المشافر
على عـلمكم أن سوف ينكح فيكم فـجدعـاً ورغـمـاً للأنوف الصواغر

إلى أن يقول:

أأطمع في صـهـري دعـيـا مجاهراً ولم نـر شراً من دعى مجاهـر

ولذلك فلسنا مع القائلين بأن نظرة العرب إلى الفرس أو غيرهم من الأعاجم لم يكن فيها شيء من تعال، أو إثارة من عصبية، وإنما كانوا يحتضنون جميع الأمم التي شاركتهم الإسلام، وشاطرتهم التفيؤ بظلال الدولة العربية ومنحوهم أصفى الود وأعمق مشاعر الإخاء[٢٣].

صحيح أن نزعة التعصب هذه قلت بتحسن أحوال الموالي وحيازتهم للأموال وإقبالهم على الثقافة العربية والإسلامية، ونبوغ بعضهم فيها، وكلما اتجهنا إلى نهاية الدولة الأموية كلما ازدادت فرصتهم في التزوج من العرب، حتى سمعنا من يدافع عن حقه في الإصهار إليهم رغم المعارضة الشديدة التي كانت موجودة آنذاك، فيحيى بن أبي حفصة جد مروان بن أبي حفصة كان مولى لعثمان بن عفان وقد أعتقه يوم الدار، وحين تزوج يحيى هذا من عمرة بنت ابراهيم بن النعمان بن بشير وأصدقها عشرين ألف درهم، ثار جدل طويل حول هذا الزواج، ولام الناس إبراهيم، وقالوا زوجت عبداً وفضحت أباك، وخالفت ما تعارف عليه الناس، ولو عاش آباؤك وأجدادك إلى الآن لرفضوا هذا القران غير المتكافىء، والذي هو أشبه بصنيع اللئام، يقول أحدهم معبِّراً إياه[٢٤].

لعمري لقد جللت نفسك خزية وخـالـفـت فـعـل الأكثرين الأكـارم
ولو كـان جـداك اللـذان تتابعا بـبـدر لما رامـا صـنـيـع الألائم

فقال إبراهيم بن بشير يرد على لائميه الذين أرادوه على انتزاعها:

لما تـركت عشرون ألـفـا لـقـائـل مـقـالا ولم أحـفـل مـقـالـة لائم
فإن كنت قد زوجت مولى فقد مضت بـه سـنـة قـبلي وحُب الـدراهـم

ويبدو من هذا الرد أن إبراهيم لم ير غضاضة من التزوج إلى الموالي، لأن الدراهم قد أنسته عصبيته، أو خففت ـ على الأقل ـ من حدتها، بحيث لم يعد هناك مجال للوم اللائمين، لا سيا وأن

هذه هي وجهة النظر الإسلامية التي تسوي بين المسلمين دون نظر إلى جنس أو لون، وقد جرت بذلك سنة الخلفاء الراشدين.

والعجير السلولي حين غاب عن الشام جعل أمر ابنته إلى خالها طالباً أن يزوجها بكفء، ولما خطبها مولى لبني هلال ذي مال رغبت فيه أمها وأمرت خالها أن يزوجها منه، ولما قدم العجير فسخ النكاح وخلع ابنته من المولى مستنكراً ما حدث مع قرابتها لأمير المؤمنين، مهدداً إذا لم يتم الفراق فلا بد أن يراق دمه حتى تخضب به الأرض[٢٥]:

ألا هل لبعجان الهلالي زاجر وبعجان مأدوم الطعام سمين
أليس أمير المؤمنين ابن عمها وبالحنو آساد لها وعرين
تنالونها أو يخضب الأرض منكم دم خر عنه حاجب وجبين

المهم أننا حين نتقدم في هذا العصر نجد هناك من يوافق على هذا الزواج، سواء أتم كما في حالة زواج يحيي بن عمرة، أم حصل التفريق بعد ذلك.

ويبدو أن نصيباً كان يدرك مكانة الموالي الاجتماعية في وسط مجتمع يتباهى بالأنساب ويحسب لها ألف حساب فإذا كان عبد الملك بن مروان قربه منه فإنه كان يعلم أنه ما اكتسب هذه المنزلة إلا بتعلمه للغة العربية وموهبته الشعرية وحسن جوابه ولم يكتسبها بانتمائه إلى أم أو أب شريفين، وقد حدّث بذلك عن نفسه حين دعاه عبد الملك إلى الطعام معه فقال له: «إن لوني حائل وشعري مفلفل وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أمٍ أو أبٍ أو عشيرة، وإنما بلغته بعقلي ولساني»[٢٦].

وبعضهم كان يشعر بهوانه لا سيما السود منهم، حتى شكى نصيب هذا إلى عمر بن عبد العزيز انفضاض الناس عن الزواج من بناته لسواد بشرتهن، فأعطاه سيدنا عمر إرضاء لنفسه وتطييباً لخاطره.

ولم تكن نظرة العرب هذه تقف عند حد امتناعهم عن التزويج إليهم بل كانت تمثل إتجاهاً عاماً ـ على الأقل ـ عند الخلفاء والولاة، عبر عنه جرير في قوله:[٢٧]

وما جعل القوادم كالذنابى وما جعل الموالي كالصميم

فإحساس العرب بامتيازهم عن رعاياهم من غير العرب كان يزداد عمقاً باتساع اتصالهم المباشر بهم وكان شعورهم بالسخط والغضب على ما يرونه من إفساد لنقائهم العنصري من جراء اختلاط هؤلاء الأجانب بهم بارزاً، في هجاء الشعراء ونقائضهم[٢٨].

كما أنها لم تكن قاصرة على الموالي فحسب، بل امتدت إلى المولدين، فكانوا يحتقرون ابن الأمة من العربي ويسمونه بالهجين إشارة إلى ما لحقه من نقص، والتاريخ الأدبي خير شاهد على ذلك، حين سابق عبد الملك بن مروان بين سليمان ومسلمة الذي كانت أمه أمة وسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك متمثلاً بقول القائل(٢٩):

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

إلى أن يقول:

وأدركنه خالاته فنزعنه ألا إن عرق السوء لا بد يدرك

لكنها كانت أقل حدة بالنسبة لهم نظراً لعملية المزج والإقتران بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى والتي ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، حتى رأينا بعض الخلفاء يتقلدون شئون الحكم وليسوا بعرب خُلّص بل أمهاتهم أمهات أولاد، كيزيد بن الوليد، ومروان بن محمد وغيرهما، ومن الطبيعي ألا تكون معاملتهم للموالي كغيرهم، ومنهم خئولتهم.

مع أن النظرة الإسلامية الصائبة تجافي هذا الاتجاه، وتمنع من هذا المسلك البغيض الذي يوغر الصدور ويملؤها بالحقد والكراهية، فالإسلام في عدالته وسماحته لا يجد غضاضة في أن يتزوج المولى من العربية أو يقترن العربي بالأعجمية، لكن الأمويين أحيوا هذه العصبية البغيضة التي حاربها الإسلام، وحاول أن يجتث جذورها ويقتلعها من النفوس بعد أن سيطرت عليها زمناً طويلاً وكانت دعوته صريحة في ذلك، تمثلت في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وفي سيرته وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، كما تمثلت في شعر بعض شعراء المسلمين في هذا العصر الذين أدركوا أن الفخر الحقيقي إنما يكون بالإسلام، وليس بالحسب الزائل أو النسب الموروث، على حد ما نجد عند نهار بن توسعة في قوله(٣٠):

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

أو قول تميم بن أبي بن مقبل:

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

وقد أشار الأستاذ أحمد أمين إلى موقف الأمويين من رعاياهم، ونعى على سياستهم تلك التي لا يقرها الإسلام حين قال: «والحق أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً يسوى بين الناس ويكافىء من أحسن عربياً كان أو مولى، ويعاقب من أساء عربياً كان أو مولى .. وكانت تسود العرب النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية، كما كان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل»[٣١] ويرى بعض الباحثين أن هذا الموقف التي اتخذته الدولة من الموالي كان سبباً في اشتغالهم بالعلم ونبوغهم فيه حتى تزعموا الحركة الفكرية ليتساووا مع العرب ويتخلصوا من المهانة التي كانت تصيبهم، وكأن العصبية ضد الموالي كانت ذات أثر فعال في خدمة العلوم اللغوية[٣٢] والشرعية.

ومن الإنصاف لهذا العصر أن نقول إن نزعة التعالي والعداء التي كانت تصدر من العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى كانت لا تشمل ـ غالباً ـ من اشتهر منهم بالتقوى والصلاح، ومن نبغ في الثقافة العربية والإسلامية كالحسن البصري، وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وغيرهم ممن تحدَّثنا عنهم كتب الطبقات والتراجم، فقد كانوا يصادفون نوعاً من التكريم على يد خلفاء بني أمية وولاتهم، فلم نكد نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تخف حدة هذه النزعة، ويكثر التزاوج والامتزاج بين بعض العرب ومواليهم ويعبر الفرزدق عن هذا الاتجاه حين يتحدث عن ابنته التي كانت أمها فارسية الأصل في قوله[٣٣].

فإن يك خالها من آل كسرى ... فكسرى كان خيراً من عقال
وأكثر جزية تهدى إليه ... وأصبر عند مختلف العوالي

كما يعبر عنه جرير حين يتحدث عن شعوره نحو زوجته الفارسية التي أهداها إليه الحجاج وقد ولدت له بلالاً وحزرة وحكيماً، وكان أهلها عرضوا عليه عشرين ألف درهم ويطلق سراحها فأبى وقال:

إذا عرضوا عشرين ألفا تعرضت ... لأم حكيم حاجة هي ماهيا[٣٤]
لقد زدت أهل الري عندي مودة ... وحببت أضعافا إليّ المواليا

ثم أخذ يمتدح بلالاً ابنه منها:

إن بلالاً لم تشنه أمه ... لم يتناسب خاله وعمه
كأن ريح المسك مستحمه ... ما ينبغي للمسلمين ذمه

وإن كان لم يتخلص من نزعته تماماً كما يظهر من عدم التسوية بين الخال والعم.

كما ظهر على مسرح السياسة بعض الخلفاء ممن كانت أمهاتهم غير عربيات مثل يزيد بن الوليد الذي كانت أمه فارسية، ونراه يفتخر بنسبه هذا قائلاً[٣٥]:

أنـــا ابن كسرى وأبي مـــروان وقـيصر جـدي وجـدي خـاقـان

كما نجد الوليد بن يزيد يعهد بالخلافة من بعده لولديه الحكم وعثمان، فخالف بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا لا يولّون ابن الأمة، وجعل الحكم مقدماً على عثمان مع أنه ابن أمه[٣٦] وكتب بذلك إلى الأمصار. ولم يأبه باحتجاج بعض بني أمية ولا بانتقاد بعض السادة من معاصريه وربما يدل. هذا على تحول اجتماعي وتطور جديد في الفكر السياسي الذي يعمل على إشراك الهجناء تدريجياً في أكبر الوظائف السياسية التي كانت حكراً على العرب وحدهم، فتجاوز بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا يبايعون لأبنائهم الصرحاء، ويتحرجون من المبايعة للهجناء على الرغم من كفاية بعضهم.

وكانت هناك ردود فعل متفاوتة من جانب الموالي، نظراً لما تحمَّلوه من عنت الأمويين وقسوتهم، وما ترسب في أعماقهم أصلاً من الاستعلاء على العرب لا سيما الفرس منهم، لذلك فقد عاودهم الحنين إلى مجدهم الزائل وسلطانهم القديم، وأخذوا يتحينون الفرصة للقضاء على العرب وسلب سلطانهم، والاشتراك في الثورات التي كانت تقوم للقضاء على سلطان الأمويين ويخططون للإطاحة بهم. وإن كانت هذه النزعة لم تظهر بوضوح في هذا العصر، بل كانت تظهر بين الحين والحين وعلى استحياء، نظراً لقوة نفوذ العرب آنذاك وتصديهم لكل من يخرج عليهم أو ينتقص منهم لكن ذلك لم يمنع بعض الموالي ممن تعلموا العربية وجرى الشعر على لسانهم أن يترجموا عما استكن في صدورهم من حقد دفين على الأمويين الذين لم يتحرروا من عقدة النسب، ولم يهتموا بمشكلاتهم الاجتماعية والسياسية، على نحو ما نجده عند يزيد بن ضبة مولى ثقيف، وكان منقطعاً إلى الوليد بن يزيد في حياة أبيه، فلما آلت الخلافة إلى هشام، أتاه يزيد يمدحه، فأعرض عنه، وقال: اذهب إلى الوليد فامدحه فذهب إليه فأكرمه وأحسن وفادته، فقال يذكر صنيع هشام به[٣٧]:

أرى سـلـمى: تصـد ومـا صددنا وغير صـدودهـا كـنـا أردنـا
لـقـد بخلت بـنـائـلـهـا عـلـيـنـا ولـو جـادت بـنـائـلـهـا حـمـدنـا

ولعله كان يرمز بسلمى هذه إلى هشام الذي رفض أن يعطيه، فحرك ما في نفسه من كراهية للعرب، وأخذ يحن إلى بني جلدته ويفتخر بهم:

ألم تــر أنــنــا لما ولــيـنــا … أموراً خُـــرِّقت فوهت ســددنــا
إذا هــاب الــكـريهة من يـليها … وأعــظــمــهـا الهيوب لها عــمدنا
وجبَّـــار تـــركــنــاه كــلـيلاً … وقــائـد فــتـنــة طــاغ أزلــنــا

ثم يذكر ما كان من تقدير الملوك لهم وولايتهم على الناس وحسن سياستهم:

وقــد كــان الملوك يــرون حــقــاً … لوافــدنــا فــنـكـرِم إن وفــدنــا
ولــيـنــا الــنــاس أزمــانــاً طوالاً … وســنــاهــم ودسـنــاهــم وقــدنــا

إلى غير ذلك مما يعد فخراً بقومه على الأمويين.

ويندد بعضهم بالعرب من طرف خفي، أو يتهجم عليهم في لمح خاطف، فيروون أن هشام بن عبد الملك دعا إسماعيل بن يسار في خلافته لينشده، متوقعاً أنه سيمدحه، فإذا به ينشد شعراً يباهي فيه بقومه، ويتيه بهم على العرب كقوله[38]:

إني وجــدك مــا عودي بذي خور … عــنــد الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلي كــريم ومجدي لا يــقــاس بــه … ولي لــســان كــحــد الــسيف مسموم
أحــمي بــه مجد أقــوام ذوي حسب … من كل قــرم بتاج الملك معموم
مَنْ مــثــل كسرى وسابور الجنود معاً … والهرمــزان لــفــخــر أو لــتــعــظيم
أسد الــكــتــائب يوم الروع إن زحفوا … وهـــم أذلوا مـــلوك الترك والـــروم
يمشون في حــلــق المــاذي ســابــغــة … مشي الضراغــمــة الأسد الــلــهــاميم
هــنــالك إن تــســألي تــنبي بأن لنا … جــرثــومــة قــهــرت عــز الجراثيم

ويبدو أن إسماعيل نسي أنه بحضرة الخليفة الأموي، فأخذ يتحدث عن كرم أصله، ونفاسة معدنه، وقوة بيانه، وانتمائه إلى كسرى والهرمزان، ويدلف من ذلك إلى ألقاب الشجاعة، فيسبغها عليهم، مما أغضب هشام، وقال أعليّ تغمز، وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت تزهق روحه، ثم أمر بإخراجه ونفاه إلى الحجاز.

ولم يكن إسماعيل يقنع بهذا الفخر أو يرضى به، وإنما أخذ بعد ذلك يتهكم بالعرب، ويزري بهم، ويستغل شاعريته في تحقيق هذه الغاية الخبيثة، يقول:

رب خـــال مـــتوج لي وعـــم … مـــاجـــد مجتدى كـــريم الـــنـصـــاب

إنما سمي الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب

ويكنى عن العرب بأمامة، ويصفهم بالجور والبعد عن الصواب، ولذا فهم أولى من العرب بالفخر، إذ يتكئون على حضارة قديمة ومجد تليد في غابر الأزمان، وهو بهذا يكشف القناع عن عدائه المستخفي للعرب، وعصبيته البغيضة عليهم.

ولم يكن هذا اتجاه اسماعيل بن يسار وحده، بل هو إتجاه يكاد يكون عاماً لدى غالبية الموالى عبر عنه شعراؤهم بصورة تختلف وضوحاً أو خفاء، ولذلك فلسنا نتفق مع أستاذنا الدكتور «شوقي ضيف» الذي يرى في شعر إسماعيل بن يسار النسائي الذي يمجد الفرس ظاهرة شاذة في هذا العصر[٣٩]. ودليلنا على ذلك أن هناك أكثر من شاعر منهم وقف من العرب هذا الموقف كما سيتضح فيا بعد، بالإضافة إلى أن كثيراً منهم لم يتعمق الإسلام في هذا العصر لحداثة عهدهم به، فكان من الطبيعي ألا يكون ولاؤهم له كاملاً، وأن تهتز في نفوسهم قيم الوفاء والإخلاص لهذا الدين، وللدولة العربية ورجالها الذين أذاقوهم كثيراً من الهوان وحرموهم من المساواة التي كانوا ينشدونها في ظل دولة ترى أن دينها الإسلام الذي من أول مبادئه أنه لا يفرق بين عربي وعجمي، وهذا ما انتهى إليه بعض الباحثين، فإن وطأة الحكم وقيود السياسة لم تكن لتجيز لإسماعيل بن يسار وفريقه أن يذيعوا في الناس هذه المعاني، وكلها تطاول ومناوأة للعهد القابض على السلطة، وربما كان ذلك بعينه هو ما جعلهم يختزنون هذه المعاني، فبقيت حبيسة الجوانح، تدمدم في أعماقهم، وتهجس في خواطرهم دون أن يهتكوا أستارها ويفضحوا أسرارها[٤٠].

فلم يكن إسماعيل بن يسار الذي جاهر بالفخر بالفرس وتغنى بحضارتهم ومجدهم الزائل ظاهرة شاذة إذ لو وصلنا شعره كله وشعر أمثاله الناقمين على العرب، لوجدنا من ذلك الكثير، وقد ظهرت هذه النغمة وتلك الدندنة واضحة في العصر العباسي، وعالنوا بعدائهم للعرب، وهذا ما دعا بعض شعراء العصر الأموي أن يعترف بالفخر الذي ظهر على ألسنتهم في هذا العصر، وقد يجاريهم في هذا لسبب ما على نحو ما نجد عند جرير وهو يتحدث عنهم[٤١]:

إذا افتخروا عدوا الصبهبذ منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

ترى منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يفحى مرزبانا مسوّراً

وربما كان ذلك لتزوجه منهم.

ورغبة في التخلص من الأمويين شارك الموالي في الثورات التي قامت ضدهم، وصاروا أنصار كل فتنة يشعلون نارها، كثورة المختار التي كانوا منها بمثابة القلب النابض، والرأس المدبر، وكان أكثر جنده منهم، إذ انخرط في جيش إبراهيم بن الأشتر الذي أعده المختار لمقاتلة الأمويين عشرون ألف رجل، كان جلّهم من أبناء الفرس بالكوفة الناقمين على العرب، وقد رأينا أحد قواد الأمويين، يخاطب جنده قبل القتال: يا أهل الشام إنكم إنما تقاتلون العبيد الأبّاق، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقية، ولا ينطقون العربية[٤٢].

وحين خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الأمويين انضمت الموالي إلى جانبه، وكان عددهم على ما يذكره الطبري مائة ألف مقاتل ممن يأخذون العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم[٤٣] هؤلاء جميعاً تجمعهم كراهية الأمويين والرغبة في التخلص منهم، وقد رأيناهم ينضمون إلى عبدالله بن الزبير في خروجه على بني أمية ومطالبته بالخلافة، لكن ابن الزبير كان شحيحاً بالمال حتى على المقربين إليه وقد أظهر التقشف والزهد في الدنيا، وقال إنما بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا فانفضوا من حوله ونفروا منه، مستغلين ذلك وسيلة للتشهير به ورميه بكل منقصة، ونجد الهجاء يوجه إليه من أقرب الناس له «كأبي حرة» الذي يقول على لسان الموالي، ويعبر عن حقيقة موقفهم منه[٤٤]:

إن الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزقنا أي الملوك على ما حولنا غلبا

ثم فارق ابن الزبير، وقال فيه بعد ذلك:

مازال في سورة الأعراف يدرسها حتى بدا لي مثل الخزفي اللين
لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرأ كنت مولاه فضيعني يرجو الفلاح لعمري حق مغبون

وهو بهذا يتهكم مما ادعاه ابن الزبير من الزهد والقناعة، وقوله: إنما شبر بطنه، وأن بطنه شبر.

ويعبر أحد الشعراء عن استيائه للموقف الذي وقفه الموالي من العرب، مؤكداً عزمه على ضرب هامهم، ومن تآزر معهم من العرب في الخروج على سلطان الخلافة الأموية، يقول «حميد بن مسلم» في يوم جبانة السبيع[٤٥]:

لأضربن عن أبي حكيم ... مفارق الأعبد والصميم

وقد وزع الموالي أنفسهم على الأحزاب السياسية، ليحتموا بها أو ينالوا من برها، لأنها الأحزاب التي كانت تتصارع على الحكم، وهذا لا يمنع أن يكون بعضهم ناصرها مخلصاً كما نجد عند «عمرو بن الحصين» من موالي بني تميم، فقد انضم إلى الخوارج وأصبح أحد شعرائها الذين يدينون بعقيدتهم، ويجاهرون بها دون مواراة أو تخفي على عادة الخوارج، يقول مصوراً المعركة التي دارت رحاها يوم قديد بينهم وبين الأمويين(٤٦):

فندور نحن وهم وفيما بيننا ... كأس المنون تقول هل من شارب

لنظل نسقيهم ونشرب من قنا ... سمر ومرهفة النصول قواضب

ويرثي أبا حمزة وغيره من الشراة في قصيدة طويلة يتحدث فيها عن بلائهم وخفائهم في عقيدتهم متمنياً أن يلقى الله وهو على ما هم عليه(٤٧):

يا رب أسلكني سبيلهم ... ذا العرش واشدد بالتقى أزري

في فتية صبروا نفوسهم ... للمشرفية والقنا السمر

تا الله ألقى الدهر مثلهم ... حتى أكون رهينة القبر

والواقع أن من أخلص منهم لمذهبه كان نادراً، لأنهم كانوا يفرحون بكل خارج على الأمويين ويرون أن الصراع القائم بين الدولة وخصومها سيؤدي حتماً إلى إضعاف الجميع، وفي ذلك قوة لهم، ولذلك كانوا يعمقون الخلاف بين الدولة وخصومها، فأبو العباس الأعمى يلوم عبد الملك ويعتب عليه أنه أخذ الزبيريين باللين، وتهاون في التعامل معهم، وكان أحرى به أن يأخذهم بالقسوة حتى يعدلوا عن فكرتهم ويدخلوا في طاعته يقول(٤٨):

أبني أمية لا أرى لكم ... شبها إذا ما التفَّت الشيع

سعة وأحلاماً إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النزع

الله أعطاكم وإن رغمت ... من ذاك أنف معاشر رتعوا

أطمعتم فيكم عدوكم ... فسما بهم في ذاكم الطمع

وزياد الأعجم مولى عبد القيس كان مشهوراً بتعلقه بقبيلته، وميله للأمويين، ومع ذلك كان يخرج وهو بخراسان «وعليه قباء ديباج تشبهاً بالأعاجم(٤٩)» وحنينه للأعاجم وميله للتشبه بهم هو ما

أغضب يزيد بن المهلب، وأمر به فقنّع، وضرب أسواطاً ومزقت ثيابه، ثم قال له: «أبأهل الكفر والشرك تتشبه، لا أم لك».

فكان كثيراً ما يحنّ إلى أصله يتباهى به ويفتخر على غيره، كقوله في الرد على كعب الأشقري حين هجا عبد القيس وكان مولى لها[٥٠]:

لئن نصبت لي الروقين معترضا لأرمينك رميا غير ترفيع
إن المآثر والأحساب أورثني منها المجاجيع ذكراً غير موضوع

ونحن لا ندري هنا إذا كان يغضب لنفسه أو لعبد القيس أو لهما معاً، فكان لا يفتأ يذكر كسرى وإيوانه وقصوره حتى وهو يمدح الأمويين، مع أن مقام المدح يقتضيه أن ينسى ذلك ولو إلى حين، ولكن نزعته الفارسية وحبه لأصله أنسياه ذلك.

وهو حتى في مديحه لا نحس فيه الصدق ولا تدفق المشاعر والأحاسيس، بل نشعر بفتور العاطفة وخوائه من المضمون كقوله في ابن الحشرج[٥١]:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقد تعود أن يمدح من يفد عليه إذا أعطاه، فإن أطبقت عنه يداه عرض به وذمه، وكان هذا موقفه من عباد بن الحصين الحبطي حين أمّه ووضع بين يديه حاجته مؤملاً قضاءها، فلما لم يقضها صب عليه جام غضبه، ووجه إليه سهامه، سالباً منه ما يعتز به العربي من القيم الخلقية الأصيلة والتي هي مجال للمباهاة والمفاخرة كقوله رامياً له بالبخل الذي تأصل في نفسه حتى صار لا يرجى خيره ولا يؤمل معروفه[٥٢]:

سألت أبا جهضم حاجة وكنت أراه قريباً يسيرا
وكيف الرجاء لما عنده وقد خالط البخل منه الضميرا
أقلني أبا جهضم حاجتي فإني امرؤ كان ظني غرورا

ومن العجب في أمر زياد أنه كان يهجو قوماً من العرب بأنهم أعاجم كقوله في بني يشكر[٥٣]:

ألم تر أن اللؤم حل عماده على يشكر الحمر القصار السوالف

لأن الغالب على ألوان العرب السمرة، والأدمة، بينما يغلب على ألوان العجم البياض والحمرة، ويصف بني يشكر بأنهم قصار الأعناق بينما يتمدح العرب بطولها، ولعله بذلك يتقرب إلى خصومهم.

وإسماعيل بن يسار انتقل من الزبيريين إلى مدح عبد الملك وكل من جاء بعده من الخلفاء، ولم يكن في مديحه هذا صادقاً، فيروون أنه أستأذن على «الغمر بن يزيد بن عبد الملك» فحجبه ساعة ثم أذن لـه ، فدخل باكياً، ولما سأله عن سبب بكائه، قال: كيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب، واستمر في بكائه حتى أعطاه، وسأله رجل بعد خروجه: أي مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال بغضنا إياهم[٥٤].

ورحل إلى رجل من أهل المدينة يقال له «عبدالله بن أنس» وأنشده مديحاً له، ومت إليه بالجوار والصداقة، فلما لم يعطه أخذ يهجوه[٥٥]:

لعمرك ما إلى حسن رحلنا ... ولو زرنا حسينا يابن أنس
ولا عبداً لعبدهم فنحظى ... بحسن الحظ منهم غير بخس
ولكن ضُبَّ جندلة أتينا ... مضبا في مكامنه يُفَسِّي
فلما أن أتيناه وقلنا ... بحاجتنا تلون لون ورس
وأعرض غير منبلج لعرف ... وظل مقرطبا ضرسا بضرس
فقلت لأهله أبه كزاز ... وقلت لصاحبي أتراه يمسي
فكان الغنم أن قمنا جميعاً ... مخافة أن نزن بقتل نفسي

فهذا الشعوبي يصمه بأقبح صفات الهجاء التي تزري بنفس العربي وتحط من قدره، فهو ليس بإنسان كريم يهتز للندى، ويسر للعطاء، وإنما قُدَّ قلبه من صخر أصم، وحين جاءه وصرح له بحاجته تغير لونه، واصفر وجهه، وكأنما ألمت به نائبة أو حلت به مصيبة، حتى خشي عليه إسماعيل أن تخرج روحه بخروج نفسه، وقدر أن السلامة والغنيمة في تركه لئلا يتهم بقتله.

هذا الهجاء الذي يفيض حقداً ويقطر بغضاً وكراهية لم يكن موجهاً لهذا الرجل وحده، بل للجنس العربي كله الذي لم يسوِّ بينهم وبين العرب، ولم يملأ له جيوبه، ولذلك لم تكن له هوية معينة، بل كان يركب كل موجة ويسير مع كل ركب، وكذلك فهو حين يمدح لم يكن صادراً عن إخلاص ومحبة وإنما كان يمدح رغبة في المال والحظوة أو رهبة من شر يصيبه، بعد أن فقد هو وأمثاله كل أمل في إسقاط الدولة الأموية، وقد استطاع بمدحه للوليد بن يزيد وأخيه الغمر أن يحصل من المال ما عجز عنه أمثاله.

وإذا كان بعض شعراء الموالي آثر الصمت، ولم يتعرض لنظام الحكم، ولم يشارك في العداء للعرب

بصورة صريحة، واندمج في المجتمع لأنه أحس بحاجته إلى العيش في سلام فسرعان ما يفتضح أمره ويخلع ثوب النفاق إذا تبدل به الحال، كما نجد عند أبي عطاء السندي ذلك العبد الأسود الذي نشأ في الكوفة وعاش فيها، وسال الشعر على لسانه، وكان الذي يؤرقه أن في لسانه لكنة تحول بينه وبين فصاحة التعبير، فأخذ يتوسل إلى سليمان بن سليم راجياً أن يمده بغلام يروي شعره للناس(٥٦).

أعوزتني الرواة يا بن سليم ... وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلى بالذي أجمجم صدري ... وجفاني بعجمتي سلطاني

ويحدد حاجته التي تتلخص في غلام فصيح يرفع عنه الحرج ويبلغ شعره فصيحاً لمتلقيه وسامعيه:

فاكفني ما يضيق عنه رواتي ... بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعـ ... ـر فإن البيان قد أعياني

وأخيراً يزجي إليه الشكر ويكيل له الثناء بأبيات غر تجري على كل لسان:

فاعتمدني بالشكر يا بن سليم ... في بلادي وسائر البلدان
ستوافيهم قصائد غر ... فيك سباقة لكل لسان

وحين يستقر الأمر للعباسيين ينقلب على عقبيه ويحاول أن يتقرب إليهم بهجاء خصومهم من الأمويين فقد صار الأمويون الآن أراذل الأشرار حيث وصلوا إلى الحكومة ظلماً ولم تكن لهم قوة تساندهم أو مجد يتكئون عليه، أما بنو العباس فهم سادة الناس وخيارهم، ينتمون إلى بني هاشم ذوي الأصول الكريمة والأعراق الطاهرة، يقول في مدح أبي العباس السفاح(٥٧):

إن الخيار من البرية هاشم ... وبنو أمية أرذل الأشرار
وبنو أمية عودهم من خروع ... ولهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاة إلى الجنان فهاشم ... وبنو أمية من دعاة النار

وهكذا يتطاول هذا العبد على سادته ويطلق لسانه بذمهم، مدعياً أنهم أرذل من يمشي على الأرض وأن دولتهم لم تقم على الحق، بل اغتصبوا الملك من أصحابه، وبذلك كانوا ودعاتهم في النار ونسي هذا العلج أنه كان في يوم ما من الشعراء الذين وقفوا ببابهم، وبحت أصواتهم بالدعاء لهم، وحين لم يصله بنو العباس، وقبضوا أيديهم عنه أخذ يهجوهم، ويذم عهدهم، ويتذكر الأيام الخوالي التي عاشها في رحاب بني مروان، متمنياً أن تعود مع ما فيها من جور، فهي خير من أيامه هذه، وإن عدل فيها بنو العباس:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا	وأن عدل بني العباس في النار

ثم يتهكم بهم قائلاً:

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم	فقد قام سعر التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتم رهط النبي وقومه	فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

فهو ينصحهم في سخرية لاذعة أن يعودوا إلى الصحراء بجوار نخلهم فإن هذا مكانهم، ليثمروا التمر ويزيدوا من غلته، فقد علا سعره، وينهاهم ألا يتخذوا من قربهم للنبي ﷺ سبباً للخلافة، فإن كانوا رهط النبي فإن النصارى رهط عيسى بن مريم.

فلم يكن هؤلاء الموالي الذين تظاهروا بحب بني أمية والولاء لهم بصادقين في مدحهم، ولكنهم كانوا مخلصين لمالهم يشتهونه ويحرصون عليه.

وكان الشعراء منهم لسان حال من وراءهم والمعبرين عن اتجاههم حيث راحوا يكشفون القناع عن عدائهم المستخفى وعصبيتهم العارمة على العرب، وأخذوا يخططون لتحويل الخلافة العربية إلى دولة فارسية.

وهكذا عظم حقد الموالي على الدولة وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، والتف منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين، وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولادة، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو سهل في عهد المأمون(٥٨) وبذلك ارتفعت منزلتهم ورجحت كفتهم، فقد برح الخفاء وجاهروا بالعداوة للعرب وعلا صوت العصبية مدوياً، وأخذوا يعبرون عن آمالهم ويفتخرون بنسبهم ويعتزون بقوميتهم في جو طليق بعيد عن الاضطهاد، حتى رأينا أحد الأعاجم وهو أبو نواس يقول في الطعن على العرب وانتقاص قدرهم(٥٩):

دع الأطلال تسفيها الجنوب	وتبلي عهد جدتها الخطوب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا	ولا عيشا فعيشهم جديب
إذا راب الحليب فبل عليه	ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول	يطوف بكأسها ساق لبيب

فذاك العيش لا شحر البوادي　　وأين من الميادين الزروب

وسار على هذا النهج يحث الناس على ترك مآثر أسلافهم، داعياً إلى التحلل منها، وحملهم على عدم احترامها، واستبدال مقدمات القصائد بأخرى تنطوي على عبث ومجون، ويسخر بأصحاب الأطلال والواقفين عليها في قوله:

قل لمن يبكي على رسم درس　　واقفاً ماضر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به　　مثل سلمى ولبينى وخنس
اترك الربع وسلمى جانباً　　واصطبح كرخية مثل القبس

وقد أدرك الدكتور طه حسين حقيقة التحول الذي طرأ على موقف الموالي حين قال عن أبي نواس في دعوته هذه إنـه لا يمثل مذهباً شعرياً فحسب، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً، يذم القديم ـ لا لأنه قديم ـ بل لأنه قديم ولأنه عربي، ويمدح الحديث ـ لا لأنه حديث ـ بل لأنه حديث، ولأنه فارسي، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب، مذهب الشعوبية المشهور»[٦٠].

ورأينا بشاراً يتبرأ من الولاء للعرب، بعد أن لم تعد بهم حاجة إلى هذا الولاء، واعتبر هذه العلاقة نوعاً من التبعية للعرب والعبودية لهم، وحملهم على نبذها والعودة إلى أصلهم وأعلن عن دعوته هذه من خلال أبياته التالية[٦١]:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم　　مولى العُرَيْب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أقرب من تميم كلها　　أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع　　سبحان مولاك الأجل الأكبر

كما دفعت العصبية الجنسية حماداً الراوية إلى إفساد تاريخ الشعر العربي، بما كان يصنعه منه ويضيفه إلى الجاهليين نظراً لقدرته الفنية على التقليد، ومعرفته بمذاهب الشعراء، وقد نبه الأقدمون على ذلك، كذلك وضعت الرسائل وألفت الكتب في مناقب العجم ومفاخرها ومثالب العرب[٦٢]، وهكذا تمادى هؤلاء الشعوبيون في الاستهتار بالعرب، وصارت مكارمهم وأخلاقهم الحميدة موضع طعن الشعوبيين ومثار سخطهم، نتيجة لضعف سلطان الخلفاء وتراخي قبضتهم على الحكم، والنفوذ الكبير الذي أصبح للموالى في العصر العباسي.

●●●

الهوامش :

(١) الأضداد لابن الأنباري ٢٩ ، المطبعة الحسينية بدون تاريخ .
(٢) انظر على سبيل المثال لسان العرب والقاموس المحيط مادة «ولى».
(٣) راجع في ذلك فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ٨٩ ط الثانية عشرة، والموالي في العصر الأموي للأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار ١٤ ط ١٩٤٩.
(٤) الحجرات آية ١٠.
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ٣٣/٢.
(٦) فتوح البلدان للبلاذري ٥٤٩/٣، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، ط لجنة البيان العربي ١٩٥٧.
(٧) أسد الغابة لابن الأثير المجلد الثاني ٤٢١، ط الشعب.
(٨) السابق المجلد الأول ٢٤٥، والبداية والنهاية لابن كثير ٧٠/٧ الأولى ١٩٦٦ بيروت.
(٩) الكامل للمبرد ١٩٨/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط نهضة مصر.
(١٠) ضحى الاسلام للاستاذ احمد أمين ٢٠/١ ط التاسعة ١٩٧٧.
(١١) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ٢٦٩ ط نهضة مصر ١٩٧٦.
(١٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د/محمد مصطفى هدارة ٣١ ط دار المعارف ١٩٦٣.
(١٣) تاريخ الدولة العربية، فلهوزن ٢١٨ وما بعدها ترجمة أبو ريدة .
(١٤) العقد الفريد ٤١٧/٣ شرح احمد أمين وآخرين ط الثالثة.
(١٥) الكامل للمبرد ٩٦/١. (١٦) تاريخ الطبري ٢٨/٢ ـــ ط القاهرة ١٩٦١.
(١٧) ديوان الأعشى ٤٠ دار الكاتب العربي بيروت.
(١٨) قيم جديدة للأدب العربي بنت الشاطىء ١١١/ دار المعرفة.
(١٩) الكامل للمبرد ٥٩/٢، وديوان جرير ٤٣٦/١ تحقيق د/ نعمان محمد أمين ط دار المعارف مع تغيير بعض الكلمات.
(٢٠) العقد الفريد ٤١٧/٣.
(٢١) الأغاني ١٠٧/١٦ ط دار الكتب المصرية .
(٢٢) العقد الفريد ١٣٥/٦.
(٢٣) انظر مقالات من أثر الشعوبية في الأدب العربي د/ نعيم العزاوي ٢٩ ط بغداد ١٩٨٣.
(٢٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٤ دار المعارف، ط الرابعة، وكامل المبرد ٧٣/٢.
(٢٥) الأغاني ١٤/١٣.
(٢٦) السابق ٣٥٢/١.
(٢٧) ديوان جرير المجلد الثاني ٥٨٨.

(٢٨) شعر البصرة في العصر الأموي د/ عون الشريف ٢٨٦ دار الثقافة بيروت.
(٢٩) العقد الفريد ١٣٠/٦.
(٣٠) الكامل للمبرد ١٧٩/٣.
(٣١) ضحى الاسلام ٢٧/١.
(٣٢) الموالي في العصر الأموي ٨٣.
(٣٣) الأغاني ٣٢٠/٢١.
(٣٤) الكامل للمبرد ١٢٣/٢.
(٣٥) مروج الذهب للمسعودي ٢٣٩/٣ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ط السعادة.
(٣٦) تاريخ الطبري ٢١٨/٧.
(٣٧) الأغاني ٢٥٣٥/٧ مصور عن دار الكتب .
(٣٨) الأغاني ٤٢٣/٤.
(٣٩) العصر الاسلامي ٢١٣.
(٤٠) طالع في هذا مقال «في معترك تحقيق الذاتية بين الشعوبية والتيار القومي» للأستاذ الدكتور فتحي ابو عيسى مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ص١٩ العدد الأول ١٩٨٣.
(٤١) الديوان ٤٧٢/١.
(٤٢) تاريخ الطبري ٤٢/٦ ط دار المعارف .
(٤٣) السابق ٣٤٥.
(٤٤) الأغاني ٢٤/١.
(٤٥) تاريخ الطبري ٥١/٦.
(٤٦) شعر الخوارج ٢٨٠ جمع وتحقيق د/ إحسان عباس ط الثالثة.
(٤٧) السابق ٢٢٤.
(٤٨) الأغاني ٣٠٢/١٦.
(٤٩) السابق ٣٨٤/١٥.
(٥٠) شعر زياد الأعجم ٨١ جمع وتحقيق د / يوسف بكار ط دار المسيرة ١٩٨٣.
(٥١) السابق ٤٩.
(٥٢) السابق ٦٩.
(٥٣) السابق ٨٤.
(٥٤) الأغاني ٤١٠/٤.
(٥٥) نفسه .
(٥٦) نفسه ٣٢٨/١٧.
(٥٧) الشعر والشعراء ٧٧٣/٢.
(٥٨) العصر العباسي الأول ٧٥ د/ شوقي ضيف دار المعارف ط السابعة.
(٥٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٠٠.
(٦٠) حديث الاربعاء ٩٠/٢ ط دار المعارف ط ١٢.
(٦١) الأغاني ١٣٩/١٣.
(٦٢) يراجع في ذلك الفهرست لابن النديم ١٧٩، ١٨٠ دار المعرفة بيروت، وبلوغ الأرب في معرفة أصول أحوال العرب للألوسي ١٦٠/١ ط الثانية بيروت .